الفصل الرابع
تأثيره في القلوب

ومن الوجوه المهمة لإعجاز القرآن: أثره في نفوس أعدائه وعمله في قلوبهم، فإن مجرد سماع القرآن الكريم له لذة وحلاوة وروعة ومهابة تسيطر على القلب وتأخذ السمع والعقل ذلك أن القرآن له سلطانه الروحي الخفي على القلوب، وولايته المطلقة على مدارك الإنس والجن على السواء، حتى قالت الجن حين سمعته «إنا سمعنا قرآنا عجيباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً».

وهذا الوجه أشار إليه الخطابي في كتابه إعجاز القرآني بقوله «وفي إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس: فلا يكاد يعرفه إلى الشاذ من أحادهم وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولامنثوراً إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق، وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود. وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً»(١).

وقد أعجب فريد وجدى بهذا الوجه حتى أنه قدمه على النظم والبلاغة فقال: لقد حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم في بيان الإعجاز من جهه بلاغته، ونحن وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلا أننا نرى أنها ليست هي الجهة الوحيدة لإعجازه.

---

(١) مقدمة إعجاز القرآن الباقلاني صـ ١٧.

ثم يرد فريد وجدى جهة إعجاز القرآن إلى كونه روحاً من أمر الله بدليل سلطانه البعيد المدى الذى كان للقرآن على قلوب الملحدين ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولاالإيمان»(١).

فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح فى الأجساد، فيحركها ويتسلط على أهوائها(٢).

وهذا الذى أشار إليه الخطابى وفريد وجدى حق لاشك فيه، فللقرآن جاذبيته وتأثيره وهناك كثير من الوقائع التى تثبت ذلك منها:

١ - قصة المهاجرين إلى الحبشة، ذلك أن جعفر بن أبى طالب لما قرأ على النجاشى ومن حوله من القساوسة والرهبان - بعض آيات من القرآن الكريم «أخذت الخشية تتغشاهم فأجهشوا بالبكاء جميعاً حتى فرغ جعفر من القراءة، ثم أرسل النجاشى إلى رسول الله سبعين عالما من علماء النصارى فقرأ الرسول عليهم سورة (يس) فبكوا وآمنوا(٣)، وإلى هذا يشير قوله تعالى «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»(٤).

٢ - قصة إسلام جبير بن مطعم حيث دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة «والطور وكتاب مسطور» حتى وصل إلى قوله تعالى «إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع» فإذا بجبير ترتعد فرائصه ويرتجف قلبه ويقول خشيت أن يدركنى العذاب فأسلم فى الحال وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأليس هذا من إعجاز القرآن وتأثيره فى النفوس.

---

(١) الشورى الآية (٥٢).

(٢) راجع ص ٣٤٣ وما بعدها من كتاب الإعجاز فى دراسات السابقين.

(٣) راجع ص ٢٦٧ من العقيدة الإسلامية وأسسها - لعبد الرحمن حبنكة.

(٤) المائدة آية ٨٣.

٣ – قصة إسلام عمر بن الخطاب وكيف أنه أسلم بعد أن سمع سورة (طه) على الرغم من عناده وحربة للإسلام فقد روى ابن إسحاق أن عمر خرج متوشحاً بسيفه يريد ضرب رسول الله وأصحابه فلقيه نعيم بن عبد الله فى الطريق – فأخبره بأن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد آمنا بمحمد فذهب إليهما عمر وهناك سمع (خباباً) يتلو عليهما القرآن فاقتحم الباب وبطش بسعيد وشج رأس فاطمة ثم أخذ منهما الصحيفة وفيها سورة (طه) فلما قرأ صدرها قال «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه» ثم أسلم(١).

وفى رواية أخرى أنه قال: لما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلت الإسلام.

٤ – واقعة إرسال المشركين عتبة بن ربيعة إلى رسول ﷺ يحاول إثناءه عن دعوته، فقرأ الرسول ﷺمن أول سورة فصلت إلى قوله (فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون، وكان عتبة حسن الحديث عجيب البيان قوى الحجة ولكنه ما إن سمع من الرسول ما سمع حتى وثب مخافة أن يقع عليه العذاب فسأله المشركون عما سمع فذكر أنه لم يفهم منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه. بل قال لقد سمعت من محمد كلاما ماهو من كلام الإنس ولاهو من كلام الجن، أن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن سفله لمغدق وأنه يعلو ولايعلى عليه ، فقال له عثمان بن مظعون: لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه(٢).

٥ – إن هؤلاء المشركين مع حربهم للرسول ونفورهم مما جاء به، كانوا يخرجون فى جنح الليل يستمعون إليه والمسلمون يرتلونه فى بيوتهم فهل ذاك إلا لأنه استولى على مشاعرهم وأثر فى قلوبهم، ولكن أبى عليهم عنادهم وكبرهم أن يؤمنوا به.

• وفى العصر الحديث يبدى أحد الشعراء الملحدين إعجابه بالقرآن ومافيه من محكم الآيات على الرغم من كفره وإلحاده، فيقول شبلى شميل.

---

(١) راجع السيرة، لابن هشام جـ ١ ص ٢٩٤.

(٢) إعجاز القرآن ص ٢٨.

دع من محمد فى صدى قرآنه ما قد نحاه للحمة الغايات

إنى وإن أك قد كفرت بدينه هل أكفرن بمحكم الايات

ومواعظ لو أنهم عملوا بها ماقيدوا العمران بالعادات

من دونه الأبطال فى كل الورى من حاضر أو غائب أو آت[١]

وهكذا تلحظ تأثير القرآن فى نفس هذا الملحد فعبر بلسانه عن الحقيقة التى جحدها بقلبه.

٦ – أنه من شدة تأثير القرآن وجاذبيته كان صناديد الكفر يحاولون منع الرسول ﷺ من قراءته فى المساجد وفى مجامع العرب وأسواقهم، وكذلك كانوا يمنعون المسلمين من إظهاره حتى لقد هالهم من أبى بكر أن يصلى فى فناء داره وذلك لأن الأولاد والنساء كانوا يجتمعون عليه ويستمتعون بلذة القرآن ويتأثرون به وتهتز قلوبهم له. ولقد كان ذعر المشركين من تأثير القرآن شديدا حتى أنهم تواصوا فيما بينهم على عدم سماعه «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» فإن هذا ليدل على الذعر الذى كان يضطرب فى نفوسهم من تأثير القرآن فيهم وفى أتباعهم وهم يرون الأتباع يؤمنون بالقرآن بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورتين يتلوها محمد ﷺ أو أحد أتباعه فتنقاد إليهم النفوس وتهوى إليهم الأفئدة.

فلولا أن الكافرين أحسوا بعمق تأثير القرآن ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما حذروهم هذا التحذير الذى يدل أعمق الدلالة على عمق تأثير سماع القرآن[٢].

---

(١) راجع ص ١٦٠ من كتاب (نظرات فى القرآن) للأستاذ محمد الغزالى.

(٢) الأستاذ الشهيد – سيد قطب – التصوير الفنى ص ١٢.

٧ – واقعة إسلام سعد بن معاذ هو وابن أخيه أسيد بن حضير حيث ذهبوا إلى مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم وقد أرسلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم – لنشر الإسلام فى المدينة – وقد نجحا نجاحا منقطع النظير فى نشر الإسلام هناك مما هال سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس فذهب إلى مصعب يهدده ويمنعه من تلاوه القرآن، فطلب منه مصعب أن يجلس ليسمع شيئاً من القرآن، فإن أعجبه قبله وإن كرهه امتنع عن القراءة، وما أن سمع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير كلام الله حتى أثر فى قلوبهم وأسلموا فى الحال[١].

ولقد صدق الله حين قال: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله». «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم بالغيب».

وهكذا فللقرآن روعة تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم وهيبة تعتريهم عند تلاوته[٢]، وقد أسلم كثير من الصحابة بمجرد سماعهم لآياته.

يقول أحد الفلاسفة الفرنسيين فيما ينقله الشيخ الزرقانى فى كتابه مناهل العرفان: «إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواها متألها، فتفعل قراءته فى جذب الناس إلى الإيمان به مالم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين»[٣].

وقد يعترض بعض المنحرفين على هذا الوجه بأنه لو كان صحيحا لوجب أن يسلم كل من استمع إلى القرآن مع أن المشركين ظلوا يعاندون رسول الله السنين المتوالية على الرغم من سماعهم إياه.

وقد أجاب الباقلانى على هذا الاعتراض بأن الناس ليسوا سواء فقد كانت صوارفهم كثيرة، فمنهم من يشك فى إثبات الصانع، ومنهم من يشك فى التوحيد، ومنهم من يشك فى النبوة، ألا ترى أن أبا سفيان ابن حرب لما جاء الرسول–

---

(١) راجع الرحيق المختوم ص ١٧٢ للشيخ صفى الرحمن المبار كفورى.

(٢) الإتقان جـ٢ ص ١٢٣.

(٣) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣٠٧، وقارن ص ٢٠٣ جـ ١ من تفسير المنار.

ﷺ ليسلم علم الفتح، قال له النبى عليه السلام: أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال بلى فشهد فقال: أما آن لك أن تشهد أنى رسول الله؟ قال: أما هذه ففى النفس منها شىء.

إذا كانت وجوه شكوك المشركين مختلفة، وطرق شبههم متباينة، فمنهم من عاد إلى فطرته وترك عناده وكبره فأسلم بمجرد سماعه، ومنهم من انحرفت فطرته وكثرت شكوكه فأعرض عن تأمل القرآن فصرفه الله عنه يقول الله تعالى «سأصرف عن آيتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق».

ومنهم من كذب بالقرآن، قبل أن يتصوره أو يحط به علما، كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى «أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين»(١).

وهكذا يشير القرآن إلى سبب من أسباب كفرهم بالقرآن وهو عدم موضوعيتهم حيث رفضوا أن يؤمنوا بالقرآن رفضا مسبقا قبل أن يفهموه ويتصوروه، ثم يحكموا عليه بعد ذلك، هل هو أهل للقبول أو الرفض.

– ومنهم من منعه الحقد والحسد والتنافس من الإيمان، فقد كان أمية ابن أبى الصلت ممن تنبأ بظهور نبى فى العرب قبل ظهور محمد ﷺ حتى طمع هو فى النبوة وأكلت قلبه الغيرة حين لم ينزل عليه الوحى، وإنما نزل على محمد ﷺ على الرغم من أن شعره كان مليئاً بالحكم والمعانى السامية حتى قال عنه الرسول ﷺ «أميه آمن شعره وكفر قلبه».

وكان الوليد بن المغيره يقول: أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما الفريقين.

ولما استمع أبو سفيان وأبو جهل والأخنس إلى القرآن ثلاث ليال متتابعة، ثم

---

(١) يونس ٣٩.

محمد؟ فكان جواب أبى جهل «ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى سندرك مثل هذه والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه»(١).

ولو كان المشركون على درجة واحدة من الفهم والعقل والفصاحة والبلاغة وكانت صوارفهم وشكوكهم متفقة لدخلوا فى الإسلام جملة واحدة بمجرد سماع القرآن ولكن سبحان مقلب القلوب(٢).

(١) قارن صـ ١٧٦ من حياة محمد – د. محمد حسين هيكل.

(٢) راجع صـ٢٨ من إعجاز القرآن للباقلانى.